أبو الفضل الوليد شاعر مهجري يعلن إسلامه !!

في عام ١٩١٦ اعتنق إلياس عبدالله طعمة الإسلام، وخلع اسمه، واختار اسماً جديداً هو «الوليد»، وتكنى «بأبي الفضل»، وانتسب بذلك إلى الأمة المحمدية الغراء بقلبه وبقلمه أيضاً.. وبرغم الشهرة العريضة التي حازها شعراء المهجر بشماله وجنوبه إلا أن شهرة أبي الفضل الوليد لم تكن مثل إخوانه المهاجرين، ويرجع «زكي قنصل» ذلك إلى سببين أولهما: أنه كان قليل الاختلاط بالجالية المهجرية لا يحضر مواسمها الثقافية أو الوطنية أو الاجتماعية. وثانيهما: أنه عاد إلى الوطن في أواخر العشرينيات من القرن الماضي أي - قبل ازدهار دولة الأدب في البرازيل[1]، وهكذا ظل اسم أبي الفضل الوليد في دائرة الظل يتراكم عليه غبار السنين الطوال حتى كاد مثقفو هذه الأيام لا يتذكرون هذا العلم الشامخ.

وإن كان مؤرخو الأدب قد أهملوا هذا الشاعر الفذ سواءٌ كان ذلك عن عمد أم سهو فإنه لشرف لكاتب هذا المقال أن يخرج هذا الاسم من دائرة النسيان ويضعه في بؤرة النور، إن لم يكن ذلك لأدبه الخالد فلنفسه الطاهرة التي استضاءت بنور الإسلام فكيف وهو شاعر جليل وعالم بلغة العرب، ومفكر إسلامي؟!

بقلم: حسن علي شهاب الدين
مصر

حياته:

نتناول في عجالة حياة ذلك الشاعر اللبناني الكبير، فقد ولد في أوائل آب ١٨٨٩م في قرية «قرنة الحمراء» من قضاء المتن في لبنان، أبوه عبدالله فرح طعمة وأمه مرشة خليل طوبيا، وهي حفيدة البطل اللبناني يوسف الشنتيري[٢].

إذن.. فقد ولد شاعرنا لعائلة من أهل الجاه والثراء، وتلقى تعليمه في أرقى المعاهد، وقد بانت في ملامحه النجابة منذ صباه، فكان لداته يقضون أوقاتهم في اللعب واللهو بينما هو يتأمل في عزلته المحبوبة قمة جبل صنين الشامخة ويطيل الجلوس في ظلال الصنوبر في مناجاة نفسه الشفيفة، وفي عام ١٩٠٨م تاقت نفسه إلى الهجرة فأبحر من بيروت، ومر سائحاً بمصر وإيطاليا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال، وتاقت نفسه إلى العالم الجديد، فتوجه إلى الأرجنتين ثم الأورغواي، وانتقل منها إلى البرازيل حيث استقرت به عصا النوى بعد اثنتي عشرة سنة، وكان مركزه في العاصمة ريودي جانيرو، وقد حاول الرجوع إلى الوطن عام ١٩١٤م إلا أن اندلاع الحرب العالمية الأولى حال دون تحقيق أمله.

في فترة إقامته في المهجر تألق نجمه وأخذ في نشر مقالاته وقصائده في صحف البرازيل العربية، بل أصدر جريدته «الحمراء» عام ١٩١٧م فكان لها شأن كبير بين المغتربين، وظل يصدر جريدته حتى عام ١٩١٧.

وفي تشرين الأول ١٩١٦م اعتنق الإسلام كما أسلفنا وفي نيسان ١٩٢٢ م عاد إلى وطنه بعد أن عرج على الجزائر وتونس، ثم عاوده هاجس السفر في غرة كانون الأول ١٩٢٤م فسافر إلى القاهرة واحتفى به أهل العلم والسياسة، وفي آخر كانون الثاني ١٩٢٥م سافر من القاهرة إلى القدس فعمان حيث استقبل بحفاوة من الساسة آنذاك.

ثم سافر إلى بغداد، وفي كل أسفاره كان محط الأنظار وقبلة أهل العلم والأدب، وسارع الملوك والأمراء إلى دعوته واستقباله، وعاد من العراق إلى بلدته، ثم انتدبته لجنة من الأحرار ليمثل لبنان في المؤتمر الشرقي ضد الاستعمار سنة ١٩٢٩م، وقد عقد في برلين، فقام بالمهمة على الوجه الأكمل، ومنذ ذلك العهد تفرغ إلى التأمل والتفكير فيما يشبه الاعتكاف حتى وافاه الأجل في أواخر نيسان ١٩٤١م، وكانت كلماته الأخيرة بيتين من الشعر هما:

على عُمرانها الدنيا خرابُ
ومع قُمريِّها ينعى الغرابُ
فدعها غير مأسوف عليها
فأولها وآخرها ترابُ

أدبه:

لاشك أن إطالتي في سرد تفاصيل حياة ذلك الشاعر مقصودة، وذلك لأنه يكاد يكون مجهولاً في عصرنا الحاضر، ثم للإلمام بجوانب تلك النفس الكبيرة ورصد تحولها العقائدي العظيم باعتناق الإسلام الذي صبغ أدب ذلك الشاعر الذي إن كان الشعر غلب عليه فقد كانت له إبداعات نثرية رائعة وبحوث لغوية جيدة.

ولنتحدث عن شاعريته الفياضة، وأول ما يروعك منها فخامة النظم والديباجة المشرقة التي تحاكي طريقة القدماء، وقد لاحظ ذلك كل مطلع على ديوان شاعرنا، وأشار إلى ذلك العديد من الشعراء والنقاد أمثال جورج صيدح، وزكي قنصل، وجورج غريب، وغيرهم، وإن كان شعراء الجنوب المهجري.. العصبة الأندلسية قد عرفوا بالتمسك باللفظ الأصيل والديباجة العربية إلا أن شاعرنا بز هؤلاء جميعاً فما تكاد تقرؤه إلا وتشعر بأنك تقرأ للشعراء القدامى.. شعراء العربية، وهو من هذه الناحية يقترب من البارودي وحافظ إبراهيم ومحمد عبدالمطلب. وقد تميز من هؤلاء أيضاً بطول النفس غير المعهود من شعراء عصره، فكثير من قصائد أبي الفضل الوليد تربو على مئة بيت، فكأنه ينشئ ملاحم لا قصائد، ومعظم هذه المطولات مصبوغ بألوان إسلامية رائعة، فلا قضية إلا وفيها دعوة للتمسك بفضائل الإسلام والحث على السبق الحضاري، ومواجهة الاستعمار والإشارة إلى تاريخنا الإسلامي الأمجد، والتشبث بلغة القرآن الكريم، والاستهداء بسيد هذه الأمةﷺكل هذا في لغة لا يعتريها وهن، ونفس مديد وبيان شامخ، فإذا بالقصيدة ملحمة إسلامية رائعة ويكفي أن نطل معاً على عناوين مطولاته لنلمس إخلاص الشاعر في الدفاع عن دينه وقوميته فمن قصائده :«الجهادية، والصحابية، والشهادية، والمكية، والرؤيا النبوية، وفي جنات العرب»، وغيرها كثير، كما للشاعر دور في الدفاع عن القدس في نكبتها بقلمه الجريء والصخاب وفي قصيدته «المقدسية»[٣] الدليل الكافي، وفيها يقول:

يا بنت يعرب في عينيك لائحة
أسياف من فتحوا الدنيا لعلياك
والله لم ننس عهداً أنت بهجته
ولا سلوناك حيناً أو نسيناك
لكن للدهر أطواراً تقلبنا
وكل قلب شريف ظل مأواك

فكم أرقنا على العرس الرفيع دماً
وكم ذرفنا دموعاً مُذ فقدناك

واستمع إليه يفتخر بنسبه العربي أجمل افتخار وأعذبه في قصيدته «آمال وآلام»[٤]:

وإذا الأعادي عيرتك بنسبة
عربية فيها صفاءُ الماء
قولي هي الفخر العظيم لأنها
شرف ورثناه عن الآباء
أزرت بنا الدنيا وأبقت مجدنا
فشقاؤنا أبهى من النعماء

وله أروع ما قيل في الجهاد وطلب الشهادة، وذلك في قصيدته «الجهادية»[٥] التي تروع القارئ بمطلعها الصارخ:

الشام يُقهر والعراق يُضامُ
واليوم لا عرب ولا إسلامُ
أين العروبة والخلافة منهما
والمسلمون بلادهم أقسامُ
لبني أمية أو بني العباس في
تلك الربوع أمانة وذمامُ
ذهبت خلافتهم وضاع سريرها
فبكى عليها منبر وحسامُ

وبهذه القصائد الروائع كان أبو الفضل الوليد يضيء الطريق لأمته مستمداً من إسلامها المشرق النور الهادي. وفي هذه الأبيات الدليل الأبهر على عروبة شاعرنا وإسلامه وعلى شاعريته الأصيلة التي كانت تستجيب دائماً لشاعرها خاصة حين تدعوه الجمعيات الوطنية لإلقاء قصائده الشامخة. وقد حدث أن دعته إحدى الجمعيات إلى إلقاء قصيدة في حفلة وطنية فوصله كتاب الدعوة قبل موعد الحفل بيومين فنظم مطولة من مئة وأربعة وخمسين بيتاً في يوم واحد وفي الخامس من أيلول ١٩١٣ ذهب إلى سان باولو وأنشد هذه القصيدة أمام الجمع المحتشد الذي تحمس له حماسة كبيرة تجلت في تهافت الحاضرين على الشاعر أفواجاً لتهنئته وإطراء مواهبه الفذة، وكان عنوان قصيدته «المعلقة اللبنانية» وفي اليوم التالي طبعت الجالية العربية هذه القصيدة في أكثر من خمسة آلاف نسخة إلى جانب صورة الشاعر لتلبية رغبة المطالبين بالحصول عليها وحفظها، ثم أقامت الجمعية له حفلة تكريمية تناوب فيها الخطباء على شكره والإشادة بشاعريته، وقدمت له وساماً من ذهب نُقش عليه اسمه واسمها.

يقول في مطلع هذه القصيدة [٦]:

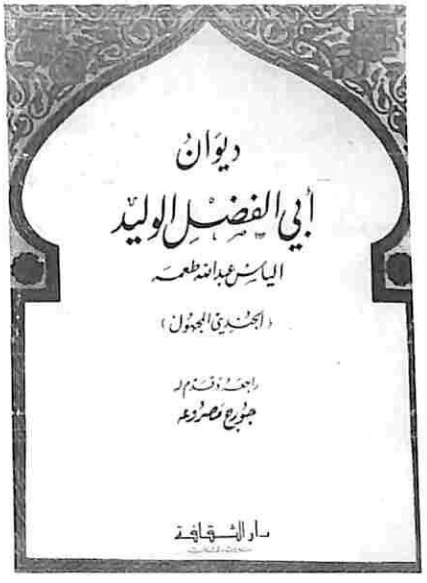

حرية الشعب بين السيف والعلم
وقوة النفس بين الدمع والألم

وفيها يقول:

روحي الفداء لأرض كل بهجتها
في العين والقلب إن أرحل وإن أقم
إن كان من قلمي في حبهم ألمي
يا حبذا الألم الآتي من القلم
أو كان شعري ونثري نافعين لهم
ضحيت قلبي فنالوا منه بالقسم
نعم النصيب نصيبي فهو لي شرف
إني لراض شقائي في نعيمهم
عليّ إتمام أمر قد خلقت له
لأنني خادمٌ من جملة الخدم

ولا يحسب القارئ الكريم أنّ شاعرية أبي الفضل الوليد لم تعزف إلا على أوتار القومية والجهاد فحسب، بل رددت أعذب ألحان الوجدان والوصف والغزل العفيف، وله في ذلك روائع، واستمع إليه يناجي إحدى النجوم[٧]:

أطالعة زهراء من ليل أحزان
كحبة درٍّ في قلادة عقيان
إليّ انظري إن كنت ساهرة معي
ليملأ منك النور صدري وأجفاني
على الأفق الداجي لمعت كدمعة
على خد صبٍّ واله بين أشجان
أفيك دموع الصالحين تجمعت
فأشبهت منها كنز درٍّ ومرجان

واستمع إليه كيف يذوب رقة في مخاطبة عصفور قائلاً[٨]:

أيها العصفور قل لي
أتُغني أم تُصلي
أنت بالإنشاد فوقي
إن تكن بالنظم مثلي
أعطني وزناً جديداً
لم يكن للشعر قبلي

إلى غير ذلك من أغراض شعرية تراها في ديوانه الضخم الذي يضم آلاف الأبيات الرائعة التي نفثها قلم شاعرنا الكبير.

نثره:

لأبي الفضل الوليد قلم قد ضُمِّن الدر إلا أنه كلم، وسواء أكان ذلك الكلم شعرًا أم نثراً تجد البراعة والرشاقة من ذلك القلم الذي تعود الإجادة، فقد وضع ثلاث روايات تمثيلية مقتبسة من تاريخ

العرب وهي: «أسرار بغداد» و«نكبة البرامكة» و«أحمد وولادة».

وله مقالات منشورة في جريدته «الحمراء» وغيرها من صحف البرازيل العربية، وله مشاركة في الترجمة فقد عرّب نظماً «البحيرة» للامارتين، و«الليالي» لألفرد دي موسيه، وقسماً من «الكوميديا الإلهية» لدانتي. وفي خليط من النظم والنثر ترجم «آخر بني سراج» لشاتوبريان، وثلاث مسرحيات لألفرد دي موسيه، ونظم نشيد الأناشيد وجعل له مقدمة رائعة، وقد ضاع بعض هذه الإبداعات أثناء سفر شاعرنا فكانت الخسارة فادحة. إلا أن لدينا من مطبوعاته رواية «زوال الحب والملك» و«أحاديث المجد والوجد» الذي نقتطف منه هذه النفثات:

«تألمت فتعلمت، وتعذبت فتهذبت، وأبصرت بقلبي ما لم أبصره بعيني، وهمت على وجهي فكان لي هدى من الضلال، وراحة من التعب، فإذا كتبت صدقت لكثرة خبري، وعلمي، وشعوري، وقد سريت في ليل محنتي أحمل الصبح في صدري».

وله: **«إن ولعي بالجمال من طمعي بالكمال، وما كان الأول إلا سبيل الثاني، فأنا بينهما غاد ورائح، طامح طامع، أركب البحر، وأسكب الحبر، متعرضاً للأهوال، وقد شئت أن أموت شهيداً لأحيا سعيداً».**

أما وثيقته التي تركها شهادة للعالمين بخط يده فيقول فيها:

«الحمد لله الذي شرف العرب، وبلغهم من الدين والدنيا الأرب، وأخرج من خير أمة خير رسول، وبسط لها في الأرض سلطاناً لا يزول، ونشر لسانها وهو لسان الملأ الأعلى. فكان لها من منثوره ومنظومه كل علق انجلى به أكتب لنفعها ومجدها، وما كنت إلا الوفي بعهدها، وإني من أبر البنين لأم الأبطال والشهيدين، وهي الأم التي تفدى، وتستحق أفضل ما يهدى، وهذا خط يميني يثبت إيماني ويقيني وأنا المجاهد الجليد أبو الفضل الوليد».

الحمراء - لبنان، الخميس ١٨ محرم ١٣٥٢هـ، ١١ أيار ١٩٣٣م.

وأدناه الشهادة المنشورة مع هذا المقال بخط يمينه.

أبحاثه اللغوية:

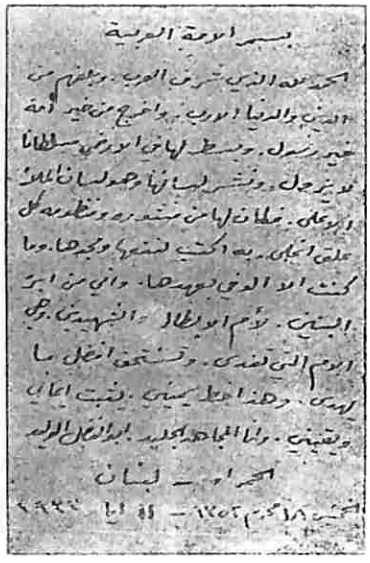

يعرف أبو الفضل الوليد بالجندي المجهول، وأنه كان أحد أسباب نهضة اللغة العربية المعاصرة بل إن جورج مصروعة مقدم ديوانه يقول عنه:

«لم يكن إلياس عبدالله طعمة دارساً للغة العربية، بل كان رسول بعثها ونهوضها، وحامل رايتها، وناشر أمجادها»[٩].

والحق أن المطلع على كتابات شاعرنا اللغوية يعترف.. بما له في هذا المجال، فقد ناقش العديد من قضايا لغتنا العربية الخالدة كالاشتقاق والإعلال والإبدال والقلب، وغير ذلك، وكان حريصاً أشد الحرص على نبذ الكلام الأعجمي من لغتنا، فيقول:

«يجب نبذ الكلام الأعجمي حين وجود ما يقابله في العربية.. وقد وضعت كلمات عربية لبعض كلمات أعجمية، ولو فوض إليّ الأمر لأحطت بالكل.. ولكني أحاذر أن أكتب ولا يُعمل بها، فأتعب ولا أتبَع، وأرى الأوفق أن تعلن في المجلات الكلمات الأعجمية المطلوب لها كلمات عربية، فيبادر علماء اللغة إلى تقديم ما يضعونه فيختار منه الأفضل، ثم ينشر، ويحتم أن يكون معمولاً به، فلا يكون إلا اسم واحد لكل مسمى».

بقي لنا كلمة في الختام هي أن الإسلام قد أمدّ أبا الفضل الوليد بقدرات تعبيرية لم تكن لتتوافر له لولا اعتناقه للدين الحنيف، صحيح أنه نظم شعراً كثيراً قبل اعتناق الإسلام، ولكن النور الذي أطلق الإسلام في قلبه والصفاء الروحي الذي نعم به في ظل الإسلام كان المحرك الأكبر لهذا الإبداع الخالد. ■

الهوامش:

١ - الشعر العربي المعاصر في المهجر الجنوبي - زكي قضل -معجم البابطين للشعراء المعاصرين ج٦، ص ٢١.

٢ - ديوان أبي الفضل الوليد. دار الثقافة بيروت.

٣ - الديوان ص ٩٠.

٤ - الديوان ص ٢٦٦.

٥ - الديوان ص ١٤٦.

٦ - قصيدة المعلقة اللبنانية الديوان ص ٢٧٤.

٧ - الديوان ص ٥٥.

٨ - الديوان ص ٥٦.

٩ - انظر مقدمة الديوان ص ٤١.